المقدمة

البوصلة الأخلاقية في مهنة الصحافة

تعد المشاركة في المعلومات من أول الأشياء التي يفعلها الناس عندما يلتقون بصديق أو أحد المعارف .

هل سمعت عن ...؟

فنحن نريد أن نعرف أنهم سمعوا ما سمعناه، ونريد أن نعرف ما إذا كانوا سمعوا ما سمعناه بالطريقة نفسها.

فهناك حالة من النشوة والإثارة في تقاسم الشعور بالاكتشاف . وعندما يحدث عائق لتدفق الأخبار.. يحل الظلام ويزداد القلق. ويصبح العالم ساكنًا ويشعر المرء بالوحدة .

يقول السناتور الأمريكي «جون ماكين» عن السنوات التي قضاها أسير حرب في هانوي خلال الحرب الأمريكية ضد الشعب الفيتنامي : إن ما أفتقده بدرجة كبيرة ليس الراحة أو الطعام أو حتى أسرته وأصدقائه وإنما.. المعلومات غير الخاضعة للرقابة وغير المشوهة.

■ ■ ■

في كتاب «المبادئ الأساسية للصحافة» ، يشرح الكاتبان الأمريكيان «بيل

كوفاتش» ، و«توم روز نشتيل» ما يطلقان عليه غريزة الوعي والدراية.

يقول المؤلفان: إننا في حاجة إلى الأخبار لكي نحيا حياتنا، ولنوفر الحماية لأنفسنا ، ولنترابط مع بعضنا البعض ، ولكي نحدد الأصدقاء ، والأعداء.. فالصحافة ببساطة، هي النظام التي تنشئه المجتمعات للإمداد بهذه الأخبار . وهنا يكمن السبب وراء اهتمامنا بنوعية الأخبار وبالصحافة التي بين أيدينا : فهما يؤثران في نوعية حياتنا وأفكارنا وثقافتنا .

وجاء وقت، شعر فيه الكثيرون من الصحفيين الأمريكيين بقلق بالغ بعد أن أظهرت نتائج استطلاعات الرأي عام ١٩٩٩ أن ٢١٪ فقط من الأمريكيين يعتقدون أن الصحافة تهتم بالناس. وتضاعف القلق نتيجة المخاوف من اختفاء الصحافة داخل عالم الاتصالات الأوسع. وظهور احتمال أن تحل محل الصحافة أشياء أخرى مثل: الإعلان والترفيه والتسلية والتجارة الإلكترونية والدعاية .

وأثناء أزمة الثقة من جانب القراء في الصحافة: تمسك الصحفيون بأن الصحافة تقدم شيئًا فريدًا: معلومات مستقلة وموثوقًا بها ودقيقة وشاملة، وهي المعلومات التي يحتاجها المواطنون لكي يكونوا أحرارًا .

وعندما تراقب الحكومات الأخبار ، فإنها تدمر الثقافة الديمقراطية ، كما حدث في سنغافورة، حيث تتم مراقبة الأخبار من أجل تشجيع الرأسمالية ، كما يجري في الولايات المتحدة الأمريكية، استغلال منافذ الأخبار التي تملكها شركات أكبر لترويج منتجات شركتها العملاقة الأم ، أو ممارسة عمليات ضغط وتأثير بارعة أو منافسة بين الشركات أو مزج المادة الصحفية مع الإعلان لتعزيز الأرباح .

ويوضح كتاب «المبادئ الأساسية للصحافة» أن مجموعة من الصحفيين قامت بتشكيل «لجنة الصحفيين القلقين» لدراسة أوضاع الصحافة وعقدت ٢١ اجتماعًا

شارك فيها ثلاثة آلاف شخص وتضمن شهادة أكثر من ٣٠٠ صحفي كما قام فريق من الباحثين الجامعيين بمقابلات استغرقت مائة ساعة وثلاثة ساعات ونصف الساعة مع الصحفيين حول القيم الصحفية وجاء الكتاب المذكور ثمرة لتلك الدراسات .

اتفق الصحفيون على بعض المبادئ الواضحة والأساسية للصحافة .

فإذا كان الهدف هو تزويد القراء بالمعلومات التي يحتاجونها لكي يكونوا أحرارًا ويحكموا أنفسهم.. فإن الضرورة تقتضي من أجل تحقيق هذه المهمة اتباع ما يلي :

- الصدق هو الالتزام الأول للصحافة .
- أن ولاءها الأول للمواطنين .
- أن جوهرها هو البحث عن الحقائق .
- أن ممارسيها يجب أن يحتفظوا باستقلالهم عن الذين يغطونهم بالأخبار .
- يجب أن تكون الصحافة رقيبًا مستقلاً عن السلطة .
- يجب أن تشكل الصحافة منبرًا للنقد العام وللحلول الوسط .
- ينبغي على الصحافة أن تبذل جهدها لكي تجعل الخبر العام مشوقًا دون الخروج عن جوهر الموضوع .
- يجب أن تبقى الصحافة على الأخبار .. شاملة ومتناسبة مع أهمية الموضوع .
- يجب إتاحة الفرصة لممارسي هذه المهنة لكي يستعملوا ضمائرهم .
- الالتزام الاجتماعي والأخلاقي للصحافة .. ضرورة قصوى .

كان البابا يوحنا بولس الثاني يقول :

الصحافة بما لها من تأثير هائل ومباشر على الرأي العام ، لا يمكن أن تقودها القوى الاقتصادية والربح والمصالح الخاصة وحدها فقط، وإنما بالأحرى يجب

obeikandl.com

الإحساس بها كمهمة مقدسة بمعنى معين من المعاني ، في ضوء أن وسيلة الاتصالات الجبارة التي عهد بها إلى الصحفي ، إنما تستخدم من أجل الخير للجميع .

يقول بيل كوفاتش وتوم روز نشتيل : أنه يجب أن يكون لكل صحفي حس شخصي بقواعد الأخلاق والمسؤولية أو «بوصلة أخلاقية» وأن يتحمل الصحفي التعبير عن ضميره الشخصي جهارًا ، وأن يسمح للآخرين من حوله بأن يفعلوا الشيء نفسه .

وهناك ما لا حصر له من العقبات أمام إنتاج أخبار دقيقة ونزيهة ومتوازنة ، وموجهة للمواطن ، وتعبر عن استقلال وشجاعة الرأي .

ويقرر المؤلفان أن قواعد الأخلاق تشكل نسيجًا واحدًا مع كل مبدأ من مبادئ الصحافة . وهناك أيضًا عبء حماية الضمير .. وهذا الضمير تنبع منه قيم ومبادئ أخرى ، مثل : الدقة والالتزام حيال المواطنين والتنوع الفكري والنزاهة .

وكل صحفي عليه أن يضع لنفسه قواعده الخاصة ومعاييره الخاصة، وأن يتخذ لنفسه نموذجًا لحياته المهنية .

ويقول الخبير الإعلامي «جون كاتز» : أنه يجب أن يكون لدى الصحفيين سياق أخلاقي في العمل الذي يؤدونه حتى يكون له معنى حقيقي.. ويضيف أنه أيًا كان ما يفعلونه فإنه يقع على كاهلهم أن يؤدوه بطريقة ترضيهم أخلاقيًا.

ومعظم الصحفيين يدركون أن الصحافة عمل أخلاقي وأن كل خلفيتهم وقيمهم ومبادئهم توجه ما سوف يعملونه أو لا يعملونه، وقد قاد التطور الوجداني والفكري.. صحفيون كثيرون إلى بعض «المعتقدات الراسخة الجميلة» على مر السنين.

وهذا البعد الأخلاقي بالنسبة إلى كثير من الصحفيين – فيما يرى كتاب «المبادئ

الأساسية للصحافة» - قوى بصفة خاصة بسبب ما جذبهم إلى المهنة في المقام الأول .

وبدون البعد الأخلاقي لا يبقى للصحفيين سوى القليل ليساعدهم على شق طريقهم في المناطق الرمادية من القرارات الأخلاقية .

تقول الصحفية المخضرمة كارول مارين:

«بما أن الأخبار لا قوانين لها.. ينتهي الأمر بالصحفي بأن يكون هو نفسه نوعًا من البوصلة المرشدة التي تحدد له ما يفعله وما لا يفعله » .

وهذا الإحساس الأخلاقي هو الذي يوجه الصحفي حول ما يكتبه وكيف يكتبه، كما يوجهه عند اختيار سلة الأخبار التي ينشرها .

ويبدي الكتاب اهتمامًا بموقف جمهور القراء .

إنهم يقولون : «نحن نتطلع إلى المعلومات ، ولكننا نتطلع أيضًا إلى الأمانة والصدق ، ونريد من الصحفيين أن يضعوا مصالحنا واهتماماتنا في قلوبهم » .

الصحفيون يعيشون ويموتون بسمعتهم كأفراد يتمسكون بمبادئ الأخلاق فهذا هو كل ما يملكونه .

وهناك أيضًا أمانة واستقامة التغطية الصحفية ، وأن تكون القصص الإخبارية معبرة عن احتياجات المواطنين ، وليست معبرة عن مصالح أقطاب النظام السياسي أو الاقتصادي.

والمتوقع من الصحفيين .. الشفافية في عملهم ومطالبة مؤسسات السلطة بالشفافية أيضًا .

والولاء للمواطنين هو الأساس ومراعاة مصالحهم ، وليس رعاية المصالح الضيقة لزمرة صغيرة من الأشخاص والاستقلالية في الرأي .

وفي عالم لا يعرف إلا لغة الأرباح.. تزداد مسؤوليات وأعباء الصحافة ، وتتضاعف أهمية أن تتخذ مسارًا أخلاقيًا في عملها .

ونقطة البداية في تدمير الصحافة هي خدمة المصالح الخاصة ، سواء كانت دعاية لدولة مستبدة أو أوامر من طبقة منغمسة في الملذات تحل الألعاب البهلوانية محل السيادة الوطنية .

وحتى المفكر الاقتصادي المدافع عن النظام الدولي الراهن جيمس دي وولفسون «رئيس البنك الدولي» السابق قال أمام مجلس الصحافة العالمي :

«إن الفساد هو أكبر مانع بمفرده للتنمية الاقتصادية العادلة في عالم اليوم.. وأي صحافة حرة لابد أن تدعو إلى التنمية العادلة .. وهناك ستة مليارات نسمة لا سبيل أمامهم للحصول على صحافة حرة ، وهناك ١,٢ مليار نسمة يحصلون على خدمة صحفية من جانب صحافة مُسَخرَةَ على نحو متزايد لخدمة الربح الخاص أكثر مما تخدم المصلحة العامة .

هذا الكتاب

الصحفي ليس «مؤرخ اللحظة» كما يصفه الأديب الفرنسي ـ من أصل جزائري ـ «ألبير كامو» .. ، ذلك أن عمله لا يقتصر على اقتناص اللحظة «أون لاين» ونقلها إلى العالم أجمع .. وإنما الصحفي هو «مؤرخ كل اللحظات بما تحتوي عليه من أحداث .. على مدار الساعة .

لم تعد المعلومة تصل إلى العالم ـ وقادته وزعمائه ـ بواسطة الحمام الزاجل أو الرسول الذي يعدو آلاف الأميال على ظهر حصانه لنقل الأخبار أو الأوامر .

ولم يعد الرأي قاصرًا على جماعة من المترفين الذين يتبادلون الأحاديث في

النوادي والسهرات الناعمة .

وإنما أصبح الخبر يصل إلى الدنيا في نفس لحظة وقوعه ، وأصبح الرأي والتحليل .. ضرورة لفهم أبعاد الحدث ومغزاه .. وعلاقته بغيره من الأمور الجارية .

وأصبحت مهمة الصحفي محكومة بالدقيقة والثانية : الموعد الأقصى لرصد الواقعة والحد الأقصى لتسليم الخبر الذي يدور حولها أو لتسليم المقال .

أي أن الصحفي أصبح محكومًا بالوقت القاتل ، على حد تعبير الكاتب الصحفي اللبناني الصديق الدكتور جورج الراسي .

لذلك رأيت زملاء أعزاء يتساقطون .. إما بالسكتة القلبية أو بارتفاع ضغط الدم أو بالاضطراب العصبي .. وغالبًا ما يفارقون الحياة وهم يضعون آخر نقطة في ختام موضوع إخباري أو مقال تحليلي .

الصحفي .. كالفراشة التي تنجذب إلى النور حتى تحرق جناحيها .. وتفنى .. أو يجذبها ذلك الثقب الأسود الذي يبتلع كل شيء .. لأنه بلا قاع أو قعر .

ومن لا يرحل ضحية نوبة قلبية أو الضغط أو الأعصاب .. يفقد حياته بالرصاص والقنابل والتفجيرات هنا وهناك .. أو ضحية لقناص ينتظره على قارعة الطريق .

هكذا فقدت اثنين من أقرب الأصدقاء لي في أتون الحرب الأهلية في بيروت ، هما الصحفي والكاتب المصري إبراهيم عامر والشاب السوري المثقف اللامع ، سكرتير تحرير مجلة «فلسطين الثورة» طلال رحمة . وسوف أتناول تفاصيل تلك المأساة في سيرتي الذاتية التي أعدها للنشر .

وفي كل عام تذيع وكالات الأنباء ومؤسسات الصحافة العالمية إحصائية بعدد

الصحفيين الشهداء ، الذين سقطوا في مواقع خطرة في أنحاء العالم . وكأنهم قرابين لابد من تقديمها لإرضاء آلهة الموت والقمع .

***

كان الدكتور محمود عزمي يقول: ان الصحافة «معلمة الأمم من الوجهة السياسية ، ومربيتها من الوجهة الخلقية ، ومذيعة الأخبار المتنوعة والآراء المختلفة بين الجمهور ، والتي تفتح الباب أمام القراء للوقوف على مستحدثات العصر ومبتكرات الفكر » . ولما كانت الوظيفة الاجتماعية للصحافة ، في رأيه ، هي «توجيه الرأي العام عن طريق نشر المعلومات والأفكار الخيرة الناضجة ، معممة ومنسابة ، إلى مشاعر القراء ..» . فإن الحرية لابد أن تكون هي كيان الصحيفة ، إذ لا يمكن تصور وجود صحافة بالمعنى الصحيح إلا إذا كُفلت لها حرية إبداء الرأي على أوسع ما يمكن من الصور » .

وقد شهد تاريخ الصحافة المصرية الحديثة مقاتلون أشداء دفاعًا عن هذه الحرية .

وقد وقع اختياري على بعض نماذج من هؤلاء الصحفيين والكتاب ، الذين فقدناهم في السنوات الماضية ، لأنني رأيت من واجبي إحياء وتجديد ذكراهم ، فهو أقل ما يجب الاضطلاع به نحوهم إذا كنا ما زلنا نؤمن بقيمة اسمها .. الوفاء ويرجع اختيار تلك الشخصيات إلى سبب محدد هو أنني عرفتهم عن قرب ، وقادتني تلك المعرفة إلى اكتشاف جوانب في أفكارهم ومواقفهم جديرة بالتسجيل ، وتنتظر إلقاء المزيد من الضوء عليها .

ورأيت أن أضيف إلى من عرفتهم شخصيتين محددتين ، لم أعرفهما شخصيًا ، هما الدكتور محمد مندور وعبد العزيز البشري .

فقد شعرت أن وجودهما بين دفتي هذا الكتاب ضرورة لاستكمال لوحة جميلة

ومشرفة .

ورأيت أيضًا أن أضيف شخصيتين نموذجيتين أجنبيتين من الصحافة العالمية ، أحدهما عرفته وتحدثت معه طويلاً ، هو الصحفي الاسترالي ـ العالمي «ولفريد بورشيت» ، والثانية .. لم ألتق بها في أي يوم ، ولكنها تستحق التحية للأسباب التي سيعرفها قارئ هذا الكتاب .

وهناك فصل في الكتاب يتناول بعض مشكلات الصحافة وقضايا المهنة .

أما الجزء الأخير ، فإنه يقدم نموذجًا للرد على صحفي كبير يختلف معه المؤلف في قضايا هامة ومحدودة .. وربما يتيح هذا الجزء إيضاح أهمية الحوار الخصب الموضوعي حول أحداث وفترات فاصلة وحاسمة من تاريخنا وحياتنا .

وإذا خلص القارئ ، بعد أن يفرغ من هذا الكتاب ، إلى أن صاحبه يؤمن بأن للصحافة دور ورسالة ، وأن الصحفي ينبغي أن يكون صاحب موقف مناصر للعدل والحرية ، وأن يكون مدافعًا عن حق الحياة والمساواة ، والأخوة بين البشر ، رافضًا للظلم والقهر والتعسف والتفاوت الاجتماعي والتقسيمات الطائفية والمذهبية .. يكون هذا الكتاب قد حقق الهدف من صدوره .

■ ■ ■